وَإنـــي عَـــنْـــكَ بَـــعْـــدَ غَـــدٍ لَـــغَـــادِ
وَقَـــلْـــبـــي عَـــنْ فِـــنَـــائِـــكَ غَـــيْـــرُ غَـــادِ[١]
مُـــحِـــبُّـــكَ حَـــيْـــثُـــمـــا اتَّـــجَـــهَـــتْ رِكَـــابِـــي
وَضَـــيْـــفُـــكَ حَـــيْـــثُ كُـــنْـــتُ مِـــنَ الْـــبِـــلَادِ[٢]

وحيد بني آدم

يمدح أبا الحسين بدر بن عمار بن إسماعيل الأسدي الطبرستاني وهو يومئذٍ يتولى حرب طبرية من قبل أبي بكر محمد بن رائق سنة ٣٢٨هـ ٩٣٩م:

[المتقارب]

أَحُـــلْـــمـــاً نَـــرَى أَمْ زَمَـــانـــاً جَـــدِيـــدَا
أَمِ الْـــخَـــلْـــقُ فِـــي شَـــخْـــصِ حَـــيٍّ أُعِـــيـــدَا[٣]
تَـــجَـــلَّـــى لَـــنَـــا فَـــأَضَـــأْنَـــا بِـــهِ
كَـــأَنَّـــا نُـــجُـــومٌ لَـــقِـــيـــنَـــا سُـــعُـــودَا[٤]
رَأَيْـــنَـــا بِـــبَـــدْرٍ وَآبَـــائِـــهِ
لِـــبَـــدْرٍ وَلُـــوداً وَبَـــدْراً وَلِـــيـــدَا[٥]

---

(١) و (٢) غادٍ: ذاهب في الغداة. الفِناء، بكسر الفاء: ما امتدّ من جوانب الدار. يُعلن الشاعر عن عزمه على الارتحال عن الأمير في صباح اليوم التالي، مؤكداً على أنه حيثما ذهب وحلّ في مكان أنه يُحبّ ممدوحه ويُخلص له الودّ ومهما نأت به الديار فإنه في ضيافته وبلاده.

(٣) و (٤) يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة مقرّراً أنه يرى شيئاً لم يكن معهوداً في ما مضى، أهو حلم أم زمن جديد وعهد لم يعرفوا مثله في الماضي؟ أو أن الأموات قد بُعثوا شخصاً جديداً يجمع كلّ الفضائل الحميدة لأجيال مضت، إنه شخص ماثل بلحمه ودمه، قد استضاء به قومه، فإذا بموكب من نور وطالع سعد قد تولّدت أنواره كأنها نجوم سعد تُنير السماء.

(٥) ولوداً: والداً. وليداً: مولوداً. البدر: القمر عند اكتماله. بدأ الشاعر مدحه لبدر، إنه قمر في عليائه وسموه وأنسه وبهائه ورقّته وحنانه يُنير ظلمة حياة مواطنيه بكرم أخلاقه وكرم ذات يده، وهو ابن أبيه، ولا يُولد قمر إلّا من قمر صفة وفضلاً.

طَـلَـبْـنَـا رِضَـاهُ بِـتَـرْكِ الَّـذِي
رَضِـيـنَـا لَـهُ فَـتَـرَكْـنَـا الـسُّـجُـودَا[١]

أَمِـيـرٌ أَمِـيـرٌ عَـلَـيْـهِ الـنَّـدَى
جَـوَادٌ بَـخِـيـلٌ بِـأَنْ لا يَـجُـودَا[٢]

يُـحَـدَّثُ عَـنْ فَـضْـلِـهِ مُـكْـرَهـاً
كَـأَنَّ لَـهُ مِـنْـهُ قَـلْـبـاً حَـسُـودا[٣]

وَيُـقْـدِمُ إِلَّا عَـلَـى أَنْ يَـفِـرَّ
وَيَـقْـدِرُ إِلَّا عَـلَـى أَنْ يَـزِيـدَا[٤]

كَـأَنَّ نَـوَالَـكَ بَـعْـضُ الْـقَـضَـاءِ
فَـمَـا تُـعْـطِ مِـنْـهُ نَـجِـدْهُ جُـدُودَا[٥]

وَرُبَّـتَـمَـا حَـمْـلَـةٍ فِـي الْـوَغَـى
رَدَدْتَ بِـهَـا الـذُّبَّـلَ الـسُّـمْـرَ سُـودَا[٦]

---

(١) لا يكون السجود إلّا عن خضوع بالإكراه أو بالمحبّة، لم يرض الممدوح أن يسجد الشاعر له لذا تخلّى عن عزمه ذلك لقاء محبّة له وطلباً لرضاه.

(٢) الندى: الكرم. جواد: كريم. إن الممدوح أمير بحقّ، فيه تتجلّى الإمارة بأجلى صورها مهابة وقوّة وكرماً، إنه كريم جواد مِعطاء، وهو يكره أن يكون بخيلاً في ميدان الكرم.

(٣) ومن مزايا الممدوح أنه يكره أن يسمع المديح الصادق في شخصه مخافة أن يحسده قلبه على ما يتمتّع به من الفضائل الحميدة.

(٤) ومن كريم طباع الممدوح أنه شجاع يُقدم على فعل كل ما يرفع من شأنه وقدره باستثناء الفرار من المعركة. ومن شأنه ميله إلى التواضع، وتلك أجمل مزايا القوّاد في الأمم، إنه عالي الهمّة يُقدم بقلب ملؤه العزم والقوّة ليبلغ أعلى مراتب الحياة في شتّى مظاهرها، وهو لا يبغي وراء ذلك شيئاً.

(٥) النوال: العطاء. الجدود، الواحد جَدّ، بفتح الجيم: الحظوظ. يُشبه الشاعر عطاء ممدوحه بأنه جزء من القضاء الإلهي، فعطاؤه مقدّر لمن كُتب له السعد وحسن التوفيق.

(٦) الوغى: الحرب. الذبل السمر: الرماح. يصف الشاعر ممدوحه بالقوّة والشجاعة؛ إنه كثير الغارة على أعدائه؛ فكثيراً ما أصدر رمحه إلى قلوب أعدائه ثم استرده وقد غطّته دماؤهم التي جفّت فبدا أسود كأنه تدثر برداء أسود.

وَهَـوْلٍ كَـشَـفْـتَ وَنَـصْـلٍ قَـصَـفْـتَ
وَرُمْـحٍ تَـرَكْـتَ مُـبَـاداً مُـبِـيـدَا[١]
وَمَـالٍ وَهَـبْـتَ بِـلَا مَـوْعِـدٍ
وَقِـرْنٍ سَـبَـقْـتَ إِلَـيْـهِ الْـوَعِـيـدَا[٢]
بِـهَـجْـرِ سُـيُـوفِـكَ أَغْـمَـادَهَـا
تَـمَـنَّـى الـطُّـلَـى أَنْ تَـكُـونَ الْـغُـمُـودَا[٣]
إِلَـى الْـهَـامِ تَـصْـدُرُ عَـنْ مِـثْـلِـهِ
تَـرَى صَـدَراً عَـنْ وُرُودٍ وُرُودَا[٤]
قَـتَـلْـتَ نـفُـوسَ الْـعِـدى بـالـحَـدِيـ
ـدِ حَـتَّـى قَـتَـلْـتَ بِـهِـنَّ الْـحَـدِيـدَا[٥]
فَـأَنْـفَـدْتَ مِـنْ عَـيْـشِـهِـنَّ الْـبَـقَـاءَ
وَأَبْـقَـيْـتَ مِـمَّـا مَـلَـكْـتَ الـثُّـفُـودَا[٦]
كَـأَنَّـكَ بِـالْـفَـقْـرِ تَـبْـغِـي الـغِـنَـى
وَبِـالْـمَـوْتِ فِـي الْـحَـرْبِ تَـبْـغِـي الْـخُـلُـودَا[٧]

---

(١) الهول: الفزع الأكبر، مباداً: مهلكاً. يُتابع الشاعر مشيداً بشجاعة ممدوحه إنه سبب من أسباب النصر، فهو يكشف عن أصحابه الضيق وهم يتعرّضون للهزيمة في حال نجدتهم، فلطالما كسر سيفاً وهو يضرب به بقوّة ساعده، ولطالما طوّح برمح بطعنة جبَّارة اخترقت صدر عدوّه فأودت بهما معاً.

(٢) يُنوّه الشاعر بكرم ممدوحه؛ إنه وهّاب لماله بلا وعد، لأنه يستبق المحتاج موفّراً عليه الاستجداء وكسر نفسه، وهو لا يهدّد مثيله بالشجاعة بل إنه يُسارع إلى قتاله، فيكون ذلك إيذاناً بموت محتم لعدوّه.

(٣) و (٤) الطلى: الأعناق. الغمود، الواحد غمد: جفن السيف. ومن مظاهر قوّة الممدوح أن سيوفه قد هجرت أغمادها إلى الأبد، وقد وجدت بديلاً لها رؤوس أعدائه التي ترغب أن تكون أغماداً لها بدلاً من أغمادها الحقيقية، وهي تتداول الرؤوس تباعاً من رأس إلى آخر.

(٥) إن شأن الممدوح دوام القتل بأعدائه وهذا ما جعل الحديد يضعف وينبري وتفتك به أمراض الشيخوخة فيموت بدوره لكثرة استعماله.

(٦) و (٧) وتبذير الممدوح يأخذ منحيين، فعلى صعيد الشجاعة، فقد أهلك أعداءه، =

خـــلَائِـــقُ تَـــهْـــدِي إِلَـــى ربِّـــهَـــا
وآيَـــةُ مَـــجْـــدٍ أَرَاهَـــا الْـــعَـــبِـــيـــدَا[١]
مُـــهَـــذَّبَـــةٌ حُـــلْـــوَةٌ مُـــرَّةٌ
حَـقَـرْنَـا الْـبِـحَـارَ بِـهَـا وَالْأُسُـودَا[٢]
بَـعِـيـدٌ عَـلَـى قُـرْبِـهَـا وَصْـفُـهَـا
تـغـولُ الـظُّـنُـونَ وَتُـنْـضِـي الْـقَـصِـيـدَا[٣]
فَـــأَنْـــتَ وَحِـــيـــدُ بَـــنِـــي آدَمٍ
وَلَـسْـتَ لِـفَـقْـدِ نَـظِـيـرٍ وَحِـيـدَا[٤]

وجعل قوم يستعظمون ما قاله في آخر هذه القصيدة فقال:

[البسيط]

يَـسْـتَـعْـظِـمُـونَ أُبَـيّـاتـاً نَـأمْـتُ بِـهَـا
لا تَـحْـسُـدُنّ عـلـى أنْ يَـنْـأمَ الأسَـدَا

= فوافوا آجالهم بقتله لهم، كما أبقى خزائنه فارغة وقد أفنى ما فيها من أموال بعثرها في أتباعه وفقراء بلده. وما يدهش الشاعر أن ممدوحه يقصد ذلك عن تصميم وسبق إصرار؛ إنه يقصد غنى الصيت الحسن مدى الدهور بالتخلّي عن الأموال وإنه بخوضه غمار الحروب وقتل الصناديد من أعدائه يرغب بخلود ذكره كبطل صنديد يقهر البغاة والجبابرة لتصحيح مسار الحياة على يديه.

(١) و (٢) ينوّه الشاعر بمزايا ممدوحه؛ إنها أخلاق تدلّ على صاحبها في كرمه وحسن بلائه في الحروب، فيستلهم العبيد من السيد الحرّ فضائل يحتذون بها، وهي حُلوة تخلو من عيوب تشوّهها في عيون المحبين والذين يُقدّرون معاني البطولة الحقّة للإنسان، وهي مرّة في حلوق الجبناء والأعداء لتقصيرهم عن اللحاق بالممدوح حتى البحار تعجز عن مباراة الممدوح في كرمه والأسود في شجاعته.

(٣) تغول: تهلك. تنضي: تهزل. يعبّر الشاعر عن ضعف الشعر بالإلمام بكلّ خلال الممدوح الحميدة؛ فرغم جلائها وتلمّسها فإن الظنون تغيب عنها مدلولاتها وغايات الممدوح السامية من ورائها تخفى على الشعراء مضامينها فيحارون في وصفها.

(٤) ومن مبالغات الشاعر أن ممدوحه واحد في كلّ زمان، فلم يلد آدم سواه بعلوّ همته وطيب صفاته ولن تلد الأمهات شبيهاً له مدى الدهر.

لَـوْ أنّ ثَـمَّ قُـلُـوبـاً يَـعْـقِـلُـونَ بِـهَـا[١]
أنْـسَـاهُـمُ الـذُّعْـرُ مـمّـا تَـحْـتَـهَـا الـحَـسَـدَا[٢]

ومن نكد الدنيا على الحرّ

وقال يمدحه:

[الطويل]

أَقَـلُّ فَـعَـالِـي بَـلْـهَ أكـثَـرَهُ مَـجْـدُ
وَذَا الْـجِـدُّ فـيـهِ نِـلْـتُ أَمْ لَـمْ أَنَـلْ جَـدُّ[٣]
سَـأَطْـلُـبُ حَـقِّـي بِـالْـقَـنَـا وَمَـشَـايِـخ
كَـأَنَّـهُـمُ مِـنْ طُـولِ مَـا الْـتَـثَـمُـوا مُـرْدُ[٤]
ثِـقَـالٍ إِذَا لَاقَـوْا خِـفَـافٍ إِذَا دُعُـوا
كَـثِـيـرٍ إِذَا شَـدُّوا قَـلِـيـلٍ إِذَا عُـدُّوا[٥]

---

(١) نأم الأسد: زأر. يردّ الشاعر على ناقديه أنهم انتقدوه مستعظمين ما صدر عنه من شعر في مرثية جدّته؛ إنها زفرة نفس قد آلمها ما حدث فإذا بها تستحيل إلى زئير أسد مجرّح الفؤاد.

(٢) ثَمَّ: ظرف مكان بفتح الثاء. ينعى الشاعر على منتقدي قِلَّة الفهم، إنهم لا يُقدّرون الشعر ولا يفهمونه، ولو عقلوه وعلموا ما يحتويه من تهديد لارتعبوا ونسوا حسدهم له.

(٣) بله: اسم فعل بمعنى دَعْ. الجِدّ، بكسر الجيم: الاجتهاد وبالفتح الحظّ. يبدأ الشاعر مدحيته بحديثه عن نفسه، إنه لا يتوانى في أمر ما فكلّ أعماله سببها أنه لا يهتمّ بالحظوظ ولا يعتمد عليها إنما يأخذ نفسه بالعزم والقوة سواء أوصل لتحقيق مبتغاه أم لم يصل، وإذا وافق الحظ مسعاه فنعمّا هو.

(٤) و (٥) اللثام: ما يوضع على الوجه من فضل العِمامة. يرسم الشاعر مسلكه في سبيل تحقيقه مبتغاه؛ وحقّه وعماده في ذلك عزمه واعتماده على نفسه في الحروب التي سيخوضها بالسلاح وإلى جانبه المجرّبون في الحروب القادرون على النصر ولا يُفارقهم اللثام فيبدو الواحد منهم أمرد لا تبدو لحيته رغم طول حقبة النضال؛ وإنهم شديدو الوطأة على عدوّهم، يثبون لدى لقاء الأعداء، صادقو الحملة، يستجيبون لداعي الجهاد؛ ورغم قلّة عددهم، فإنهم يتكاثرون إذا دعت الحاجة، فيسدّ بعضهم مسدّ كلّهم.